تعريف بالكتاب

قصص لايكتبه غير كاتب واحد
وكاتب لايظهر فى غير عصر واحد
وعصر لايتفق لغير عالم واحد
وعالم لابد أن يتلاقى فيه عالمان : قديم وجديد

هذا لغز يصح أن ينشر فى الصحف الأدبية ولا يحسب من ألغاز العبث والتكلف ، لأنه ينتهى بعد البحث فيه الى جواب مطابق لحكم النقد وحكم التاريخ ، فليس من المقبول ، عقلا ، أن يكون له جواب غير اسم واحد : هو اسم الكاتب المشهور هنرى چيمس الذى يعرفه بعض قراء الثقافة العامة بنسبته الى أخيه وليام چيمس الفيلسوف الكبير ، وربما انعكس الأمر عند قراء القصة فقيل عن وليام الفيلسوف انه شقيق هنرى القصاص !

ولو عرضنا أسماء المعاصرين لهذا القصاص الكبير من الأمريكيين والأوربيين لما وجدنا منهم واحدا يصح أن يذكر اسمه فى جواب ذلك اللغز الذى قدمناه ، فما من أحد غير هنرى چيمس يكتب رواية السفراء وزميلاتها فى موضوعها بأسلوبها الفنى الذى اتسم به قلم هذا الكاتب العبقرى الوحيد فى بابه ، لأن كتاب العالم الجديد وكتاب القارة الأوربية المخضرمين بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين لم يوجد منهم جميعا من هو تكرار آخر لهنرى چيمس فى ظروف حياته ، وظروف نشأته ، وظروف الاتصال بينه وبين العالم الذى نشأ فيه ، والعالم الذى انتقل اليه ، ثم استقر فيه بقية حياته .

كان مولد هنرى چيمس فى أمريكا قبيل الاتصال بين العالم الجديد

والعالم القديم فى العلاقات العالمية ، وكان أدب هذا الكاتب هو قنطرة العبور بين هذين العالمين ، وهما على الحالة التى اشتهرا بها خلال تلك الفترة ، ولا تشبهها حالة غيرها قبل العصر المخضرم منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

فالعالم الجديد فى الولايات المتحدة كان ينشىء مجتمعه القومى بعد مجتمعه الأول الذى كان فى حقيقته مزيجا من طوائف متفرقة لم تزل كل منها على انتمائها الى أصولها فى القارة الأوربية ، وقد ولد هنرى چيمس وتكونت مقوماته الشخصية كما تكونت مقومات ذلك المجتمع فى آونة واحدة ، وخلاصة ما يقال عن كيان ذلك المجتمع أنه كان يحتفظ للفرد بغاية مداه من حدود الشخصية الانسانية أمام الطبقة التى لم تنفصل بعد بحدود مقسومة ، وأمام القومية التى كانت أقرب الى الصبغة العالمية المشتركة منها الى العصبية العنصرية فى أمة واحدة توارثت طبقاتها وانعقدت عليها .

وكان فن العالم الجديد يمضى فى طريق الاستقلال بكيانه ، بعد أن تدرج زمنا على طريق المحاكاة للفنون الأوربية ، فهو أقرب الى طبيعة الخامات فى دور التصنيع منه الى طبيعة الصناعة التى خرجت من قوالبها وفرغت من الصقل والتسوية على وضعها الأخير .

أما القارة الأوربية فقد كانت هى أيضا بين مرحلتين من تاريخها العريق : مرحلة الماضى بطبقاته وتقاليده وعوارض انحلاله ، ومرحلة المستقبل فى طريق الثورة على القديم بين الهدم والتحول المنتظم الى البناء الجديد .

وكانت فنونها قد فرغت من التسوية والصقل كما تقدم ، ولكنها قد فرغت لكى تمتلىء بالجيد والردىء من ودائعها الجديدة ، أو كما قال هنرى چيمس فى وصفها انها أشبه بالزهريات التى تبدو فى جمال التحف النفيسة وفيها من الأوشاب والأخلاط ما شاء أصحابها من

النفيس وغير النفيس ، ومما يدخر كما تدخر الجواهر ، أو يلقى كما تلقى النفايات .

وكان العيب الأكبر فى تلك الآنية الجميلة أنها تتفتت من البلى وبداخلها الترقيع والتبقيع من الأيدى التى لاتحسن الصناعة .

أما العيب الأكبر فيما يقابلها من فنون العالم الجديد فهو خشونة المواد الخام وصلابتها التى تحسب الحساب للوقاية من الكسر قبل أن تحسب الحساب لمرضاة الذوق والموافقة لشرائط الاتقان .

وقد كانت هذه الأطوار كلها معروضة فى قصص هنرى چيمس ولاسيما قصصه الأخيرة التى كتبها بعد تمام نضجه العقلى وخبرته الفنية ، وهو دور من أدوار ثلاثة فى حياته الأدبية ، وصفها معاصرو الأديب فيليب جويدللا Guedalla فقال انها هى أدوار چيمس الأول، وچيمس الثانى ، وچيمس الشيخ المطالب بالعرش ، وكلها فى الواقع تقابل أدوارا منقسمة فى تطور الكاتب بحسب الخبرة والأسلوب وموضوع الكتابة .

ولم يحدث أن كاتبا آخر من العالم الجديد عرض للأطوار الأمريكية والأوربية فى عصره كما عرض لها هنرى چيمس ، ولكنها لو عرضت فى القصص بأسلوب كاتب آخر لكان من البعيد جدا أن يتفق الكاتبان فى نمط الكتابة ، وفى طريقة التناول ، وفى المؤهلات النفسية ، ومؤهلات التربية والتعليم ، لأن النظرة النفسية (السيكولوچية) التى امتاز بها هنرى چيمس كانت على ما يظهر من ترجمة أبيه وأخيه وجده من قبلهما وراثة عريقة فى الأسرة لاتتهيأ لكل كاتب من كل أسرة ... أما الخبرة التى استفادها هنرى چيمس من غير الوراثة فقد كانت أندر من ميراثه الطبيعى بين كتاب عصره ، فلم يتفق لكاتب آخر أن يملك وسائل السياحة والاقامة بين أقطار القارة الأوربية والجزر البريطانية كما اتفق ذلك لهذا المؤلف الموهوب المجدود ، ولم يتسع الوقت لأحد من معاصريه بين أدباء القصة لاختبار الدنيا على دعة وهوادة طلبا للتعلم والاستفادة

وفى غير اضطرار الى التكسب والارتزاق من قلمه ، وقد تمرس - مع هذا - بأعمال كثيرة من أعمال حملة الأقلام تزوده بأسباب المرانة الطويلة فى كل منها ، فاشتغل بالنقد ، واختلط بالحياة المسرحية ، وكتب الى الصحف والمجلات ، وتدرب على كتابة النادرة والحكاية والقصة والرواية والفصول التمثيلية ، واهتم بارضاء سليقته فى كل ما كتب ، ولم يكن له اهتمام بترويج مؤلفاته للكسب منها ، ولهذا بلغ غاية الشهرة العالمية فى أخريات أيامه وبقيت قراءته محصورة بين طائفة من رواد الثقافة والذوق ولم تطبع فى حياته رواية من رواياته مرتين ، وكان يقول لصديقه وزميله ألقصاص وليام ويمارك چاكوب وهو يمازحه ويلاطفه ويبدى له اعجابه : « آه يامستر چاكوب ! اننى أحسدك ... ان كتابتك البديعه تلقى الاعجاب فى نطاق واسع وتنال القبول بين جمهرة الناس، ولكن رواياتى لاتعاد أبدا ... وكم وددت لو أننى بلغت هذه الحظوة عند جمهرة القراء » .

ولقد أصاب فان دورين أحد المحاورين فيما يلى باشارته الى التقرير الذى كتبه خبير شركة هاربر عندما أريد منها طبع روايته « السفراء » فقال ذلك الخبير : « ان السناريو لا يوحى بقصة تحبها جمهرة الناس، فخيوطها من الدقة والاستخفاء بحيث يعجز الجمهور عن تتبعها ، وهى تتناول تجارب شخصية لاموضوعية . وفى القصة نسيج عقلى معقد يضل القارىء فى تتبع خيوطه اذا خذله انتباهه من أثر الملالة والسأم ، ونسبة كبيرة من أشخاص الرواية أمريكيون ، ولكن أحداثها تجرى أساسا فى باريس » .

وهذا النقد كله صحيح فى جميع تفصيلاته ، ولكن رواية «السفراء» - على هذا - تنفرد بالنصيب الأوفر من فن هنرى چيمس وخبرته وصحة رأيه فى الحوادث والناس وبعد نظره فى اختيار الجوهر من موضوع القصة ونفى فضوله وحواشيه العرضية ، ولكن القراء الذين تعودوا طريقة هذا الكاتب يصبرون على هذه الدقائق والخفايا وقد يحبونه

من أجلها بعد التدرب عليها ، كما نحب الاصغاء الى المتحدث الممتع اذا ألفنا منه الصوت الخفيض والكناية البعيدة الى أغراضه ومراميه .

والفضيلة التى توازن هذا « الخفاء »فى تحليلاته النفسية ودقته فى التذوق والاستحسان أن دقائقه ليستمن قبيل الولع بالأناقة أو بالمحاسن السطحية ، ولكنها ترجع فى أساسها الى العناية بتربية النفس وتحصين قواها الباطنية وأسرارها التى تنطوى فى حرم « الشخصية الانسانية » المقدسة ، وقد كان احترام هذه الشخصية أو احترام حقوق الفرد على العموم هو الجانب الأمريكى الذى أقام عليه قنطرته بين العالمين الجديد والقديم ، وفى مقابلة هذا الجانب من العالم القديم تقوم آداب المجتمع على أساسها الغابر من بقايا الايمان بالتقاليد « الروحانية » .

وفضيلة أخرى لهذا الكاتب الفريد فى بابه بين كتاب عصره من الأمريكيين والأوربيين .

تلك الفضيلة التى من أجلها يعاد النظر فى أدبه الآن هى العبقرية التى تستطيع أن تمثل الانسان فى أدوار شتى من مراحل الانتقال ، أو تستطيع أن تمثله وهو ماض فى طريقه على قنطرة العبور ، ولكنها بعد ذلك تستبقيه للقارىء صالحا للمعاطفة والتعارف بين خلفائه من أبناء الأجيال التالية لأنها تمثله « انسانا » حيا من وراء غلاف الحواشى والتقاليد .

عباس محمود العقاد